أبو العلا

obeikan.com

obeikan.com

«سألت الشيخ عبد ربه التائه: كيف تنتهي المحنة التي نعانيها؟
فأجاب: إن خرجنا سالمين فهي الرحمة، وإن خرجنا هالكين فهو العدل»

**نجيب محفوظ**
**أصداء السيرة الذاتية**

obeikan.com

# (1)

كعادتي لم أجد إلاه.. ذهبت إليه وأنا المشتاق المحب العاشق.. وقفت على بابه المفتوح دوما.. لم أدخل.. ظللت أتأمله وهو منكب على كتابه يدون فيه.. تمنيت لو نظرت إلى ذلك الكتاب لأعرف ماذا يكتب.. شعرت بأنه يدبر لي أمرا لن أعرفه الآن.. هو خير بالطبع.. وهل يصنع إلا خيرا؟!

لم يرفع رأسه.. وجاءني الصوت الهادر الهادئ: هل ستظل واقفا هكذا؟

وأخذت خطوة ودخلت من الباب.. قلت له: يريدونني أن أنسى!!

قال دون أن يرفع رأسه: وأنت؟!

قلت: أأنسى روحي؟! وهل لي عيش دونها؟! قلت لي إنها تحوم حولي وستعود يوما، وأنا على العهد والوعد باقٍ.

لم يترك قلمه وكتابه، وظل يدون، ثم قال: دعهم يقولون إذن.

قلت: سأدعهم.. مشكلتي أنهم يعلمون.. وهل يعيش مثلي

دون روحه؟ أي حياة تلك التي ستكون؟ حياة دون روح؟! ما أبغض هذا!! هو الموت.

ومع كلماتي كان يتجه نحو نافذته.. وقف ينظر إلى عالمه.. فترة الصمت طالت، وأنا أنتظر كلماته.. وجاءني الصوت: كثيرون يعيشون دون أرواحهم.. فرطوا فيها فماتوا وهم أحياء!!

وخرجت مني الكلمات دون أن أدري: وأنا لن أفرط.

التفت إليّ قائلا: إذن.. ستعيش دوما!!

واحتضنتني عيناه!!

obeikan.com

# ( 2 )

وماذا بعد؟

هكذا قلت له حين دخلت عليه غرفته المضيئة دوما.. قلتها بانفعال المعذب المتألم ذي القلب الموجوع.. كان واقفا عند نافذته ناظرا إلى عالمه.. بدا وكأنه لم يسمع، وأنا أعرف أنه السامع العالم العارف، وهل هناك من يعرف غيره؟!

أخذت خطوة أخرى تجاهه وكأنني أمد يدي طالبا النجاة، ثم قلت: يا «أبو العلا».. أما آن لروحي أن ترتاح؟! أما آن لكل حالم أن يجد حلمه؟!

التفت إلي، واقترب مني، قائلا بصوته الهادر الهادئ في آن واحد: أمات الحلم في قلبك؟!

قلت: لا، ولكنه كاد..

قال: إن مات مت!

قلت: وها هي روحي تضيع.. تذهب مني دون رجعة!

واقترب مني أكثر وأكثر.. وشعرت بأنه يربت على كتفي، وغاصت عيناه الخضراوان في أعماقي، وهو يقول: بل تحوم

حولـك، وسـتعود يومـا..

نزلـت الطمأنينـة إلى قلبـي، وهـدأت قليـلا، وشـعرت بروحـي تعـود، وعـدت لأحلـم مـن جديـد.. وسـمعته يقـول: سـيتحقق الحلـم يومـا، واعلـم أني دومـا معـك!

obeikan.com

# ( 3 )

ذهبت إليه وأنا لا أعرف ماذا أقول.. كان قلبي ممزقا، موجوعا، متألما.. دخلت غرفته مطأطئ الرأس.. لم أقوَ أن أرفع عيني إليه..

جاءني صوته: ماذا بك؟

قلت: أنت تعرف..

جاءني الصوت مجددا وكأن كلمة لم تخرج من فمي: ماذا بك؟

قلت: أنت تعرف أنه خيرني بين الأمرين.. بين أن يحزنني.. يؤلمني.. يقتلني، وأن يغضبك أنت!

لم أرفع رأسي، لكني سمعت خطواته وهو يتجه نحو نافذته، ثم قال: وماذا بعد؟!

قلت: كلاهما مر.

وانتظرت طويلا: ثم سمعت الصوت الهادر: أتعرف أن غضبك يغضبني؟!

ورددت مسرعا: ولكنهم لا يعرفون هذا..

وشعرت بخجل من نفسي، ورفعت رأسي والدموع تملأ عيني، وقلت: تعرف أني أحبك أكثر من حبي لنفسي.. تعرف أني لا أطيق بك غضبا، ولكن....

ولم أجد ما أقول.. وجاءني الصوت: اهدأ وقر عينا.

رفعت رأسي فوجدته ناظرا إلى عالمه، فقلت: لمَ نحن عاجزون عن اختيار طريق سعادتنا؟ لمَ كل هذه القيود التي تكبلنا؟

التفت إليّ وافترب، وسدد نظرات عينيه الخضراوين إليّ، قائلا: ستجد الطريق يوما!!

وهدأت ناري!!

# ( 4 )

ذهبت إليه.. كنت أشعر بالوحدة الشديدة.. ما أصعب أن تكون وحيدا!

دخلت الغرفة المضيئة بضوء وجهه الساطع.. قلت له: يا «أبو العلا».. كيف لك أن ترضى بهذا؟! جزء مني مفقود.. كلما اقتربت منه ابتعد، وكلما اقترب مني وجدته بعيدا؟!

رفع رأسه وصوب العينين الخضراوين إليّ، ولم يتكلم.

عدت أقول له: أنت وعدتني قبل ذلك بالحب.. بالحق.. بالخير.. بالجمال.. فكيف ترضى بالفقد والقسوة والإجبار والسطوة؟! كيف ترضى بهذا؟

قام من جلسته واتجه إليّ ناظرا إلى عينيّ، قائلا: وما ظنك بي؟!

قلت: لم أر منك إلا الصدق.

قال: وأنا عند ظنك بي..

وانشرح صدري!!

# ( 5 )

رغم كل شيء.. سأحاول أن أكون!!

ولكن ألن تساعدني يا «أبو العلا»؟! الأمر كله متعلق بيديك، فساعدني، ولا تدعني وحيدا!!

obeikan.com

# ( 6 )

لم أشعر بضيق وعجز مثل هذا من قبل.. كان عليّ إذن أن ألجأ إلى بابه. وهل لي باب ألجأ إليه سواه؟ كان على غير عادته.. نعم كان غاضبا هذه المرة على نحو لم أره من قبل.. لا لم يكن مني.. قلت له: يا "أبو العلا» جئتك طالبا العون.. ما أسوأ أن يشعر الإنسان بالعجز حتى عن مد يد العون لروحه.. روحه التي تكاد تنخلع.. أما لي من مساعدة عندك؟

كان غضبه زائدا عن الحد فلم يرد.. ذهب إلى نافذته وأخذ ينظر إلى عالمه.. اقتربت خطوة وقلت: «أبو العلا».. ما لي أراك غاضبا؟

لم يلتفت إليّ.. جاءني ذلك الصوت العميق الهادر: يعيثون في الأرض فسادا.. يقتلون الحب في القلوب العامرة..

أخذت خطوة أخرى.. وقلت: ومن هم هؤلاء؟

قال: من هم سبب ضيقك وعجزك..

والتفت إليّ التفاتة مفاجئة، ثم قال: اعلم أنهم وإن انتصروا ليلة فلن ينتصروا أبد الدهر..

كانت العينان تلمعان بالخضار.. لكن ليس كعادتهما.. كان بريقا آخر.. نظرت إليهما مليا، ثم اقتربت الخطوة الباقية التي كانت تفصلنا.. وتعانقت روحانا، ولم أعرف من منا كان يطمئن الآخر هذه المرة.. ولكن قلبي، ورغم كل هذا، كان مشغولا بروحي التي تكاد تنخلع!

obeikan.com

# ( 7 )

هـذه المـرة لم أذهـب إليـه.. جـاء إليّ هـو.. لم أُفاجَـأ بوجـوده، فهـو دائـما معـي.. لم أسـأل نفسي ذلـك السـؤال الـذي كنـت أسـأله صغـيرا: وكيـف دخـل؟ فسـؤالي لم يعـد ذا معنـى.

كانـت ابتسـامة صافيـة تمـلأ وجهـه.. عينـاه الخـضراوان تلمعـان كعادتهـا.. قلـت: جئـت في وقتـك يـا «أبـو العـلا».. دومـا تـأتي في وقتـك.

اتسعت ابتسامته، وقال: لمَ؟ أكنت تريدني؟

قلت: أريدك دوما معي..

وصمـت لحظـة ثـم قلـت: كنـت أشـتاق إلى حضنـك الدافـئ.. إلى قبلـة منـك عـلى جبينـي.

قال: وبماذا تشعر الآن؟

قلـت: راحـة وطمأنينـة.. بهجـة وسـعادة.. بسـط يـا «أبـو العلا».. بسط.

تحـرك إلى ذلـك الكـرسي في طـرف الغرفـة، واعتـدل عليـه.. نظـر إليّ طويـلا، ثـم قـال: ومـا الراحـة والطمأنينـة إلا الحضـن، ومـا

البهجة والسعادة إلا القبلة، وبهما يكون البسط!

شعور غريب أصابني.. وتركت الغرفة كلها، وانكشفت الحجب، فتخطيت الحواجز والجدران إلى ذلك الأفق الممتد..

عانقت روحي، ونلت الحضن والقبلة، واستدرت إليه فوجدته جالسا على كرسيه مبتسما، وذبت في صفاء عينيه!

Obeikan.com

# ( 8 )

حين دخلت غرفته ذات الباب المفتوح دوما كنت أشعر بأني كدت أختنق.. حالة القبض التي تهاجمني من حين لآخر كانت تحاصرني.. كنت أقول لنفسي: أما آن للقبض أن يذهب ليحل البسط؟

كنت أعرف أنه يشعر بوجودي كعادته، ولكنه اعتاد ألا يرفع رأسه وأن يظل منهمكا في كتابه، ولكنه رفع رأسه هذه المرة.. قال: هون على نفسك فما يداوي الروح إلا الروح.

قلت: يا «أبو العلا» ولكن روحي تكاد تفارقني..

قام من جلسته واقترب قائلا: روحك بحثت عن روحها حتى وجدت مستقرها!!

لم أفهم.. قلت: يا «أبو العلا» لست في حاجة إلى ألغازك.. ما جئت إلا لتطمئنني.

استدار إلى نافذته، واستغرق في النظر إلى عالمه.. لم أعرف إن كان هو القائل أم آخر، ولكني سمعت ذلك الصوت الهادر: «قل الروح من أمر ربي».

والتفت إليّ فجأة، وصوب إليّ عينيه الخضراوين، فذبت فيهما، وسكنت روحي، وزال القبض، وحل البسط!!

obeikan.com

# ( 9 )

لا أعرف لماذا شعرت بأنني كنت في حاجة إلى أن أذهب إليه.. أحتاج إليه دوما، ولكن ما أحوجني إليه هذه الليلة! اقتربت من ذلك المكان الذي يشع أمنا ومحبة وصفاء.. كانت نافذته مضيئة كعادتها.. وهل أظلمت يوما؟! دخلت من الباب المفتوح، وجدته جالسا على كرسيه، ممسكا كتابه.. لم يرفع رأسه، وجاءني صوته: كيف حالك؟

قلت له: تعلم أني سعيد، وتعلم سر سعادتي.

قال: أعلم، ولكن أتشعر بالاطمئنان؟!

قلت: جئت ألتمسه منك.. لن يكون لروحي مستقر إلا عندك.

قام من على كرسيه دون أن ينظر إليّ، واتجه إلى نافذته قائلا: لقد وجدت روحك مستقرها، فنم قرير العين.

وسمعت تمتمته.. لم تكن إليّ.. كان يقول: عالم الأرواح باق.. أمّا كل ما سواه، فلا بقاء له.

وذابت روحانا عشقا!

# ( 10 )

قال لي: أتخاف؟!

قلت: كلا.

قال: ولمَ؟

قلت: لأنك معي. صنعت على عينك..

فاقترب مني قائلا: بل إنك بأعيننا..

وذبت في عينيه الخضراوين، وزدت ثقة!!

obeikan.com

# ( 11 )

«لـو أملـك أن أزرع كل العـالم حبـا لفعلـت».. هكـذا قـال.. لم يقلهـا بلسـانه.. كانـت عينـاه الخـضراوان تنطقـان بهـا..

وسـألته: أويستحق العـالم منـا هـذا الحـب؟ لم يغضـب.. لم يبتعد.. لم يذهـب حتـى إلا نافذتـه.. نظـر إلى عينـيّ أكثـر، وقالهـا: «أتسـتطيع الحيـاة دون الحـب؟ يـوم أن يذهـب الحـب تذهـب الحيـاة»..

ولم أجـد إلا أن أضـع يـديّ عـلى وجهـي لأخفـي ذلـك الفيـض المنهمـر مـن عينـي.. أزاح يـديّ برفـق.. واحتضنتنـي عينـاه..

وقتهـا.. تذكـرت ذلـك السـؤال الـذي يحيـط بي في كل مـكان: ومـن «أبـو العـلا»؟

وجدتنـي أقـول: هـو البـاب المفتـوح دومـا.. هـو الحبيـب الـذي لا حبيـب غـيره.. هـو النـور الـذي لا ينطفـئ.. هـو الحـب.. الحـب ذاتـه!

وأفقـت عـلى نظرتـه الحانيـة.. كانـت تخترقنـي كعادتهـا.. وذبـت فيهـا كـما تعـودت!!

# ( 12 )

دخلت عليه غرفته في ذلك الوقت المتأخر من تلك الليلة الليلاء.. كان الباب مفتوحا، وكانت الغرفة منيرة، فلم يكن هناك جديد يذكر.. بل كان هناك قطعا، فعنده دائما الجديد!!

لم يرفع رأسه عن كتابه.. لم يلتفت إليّ.. فقط جاءني صوته: ماذا أتى بك في هذا الوقت؟

قلت: جئت أستمد منك القوة يا «أبو العلا».

فقط جاء الصوت: ضعيف أنت إذن؟!

لم أستطع أن أنطقها.. كنت أعرف أنني ضعيف.. أنني حقا أضعف مما كنت أتصور يوما.. أن ذلك اللعين الذي كنت أزهو دوما بأنه لم يستطع أن يحرك فيّ ساكنا قد نجح أخيرا.. يا هلاكي! أأهزم بعد كل ذلك في هذه المعركة التي بدأت يوم بدأ وعيي؟! لم أنطق..

رفع رأسه عن كتابه، وانتصب واقفا.. اقترب مني.. وضع يده على كتفي.. واحتضنني.. نعم لقد فعلها.. شعرت بتلك الهموم تنزاح شيئا فشيئا.. وضعت رأسي في حضنه وانهمرت

الدمـوع.. رفـع رأسي إليـه.. واحتوتنـي العينـان الخـضراوان.. وقـال: لا تخـف.. ضعفـك دليـل إنسـانيتك.. وبحثـك عـن القـوة لا يعكـس إلا قـوة!!

مسـح دموعـي بيديـه المبسـوطتين دومـا.. وشـعرت بالقـوة تمـلأ قلبـي، وعرفـت بـأني سـأفوز.. لـن أخـسر معركتـي تلـك!!

obeikan.com

# ( 13 )

دخلت عليه غرفته المضيئة.. رأيته وهو يدون في كتابه المفتوح مثل بابه دوما.. قلت له: لقد تعبت!!

ظل يدون، وبعد لحظة صمت قال: وما الجديد؟ تتعبك هذه التى تسعى لها دوما!!

شعرت بالغضب يملأ قلبي.. وصرخت: أنا لا أسعى إلا إلى رؤية ما وعدتني به يا «أبو العلا».. الجمال.. الحق.. الخير..

لم يرفع رأسه قط.. ولكنه قال: إن سعيت لذلك فستجده..

قلت له: أين هذا؟ هذا لا يوجد في عالمنا..

رفع رأسه، واخترقتني عيناه، وقال: غيّره..

وخرجت الكلمة مني كالرصاص: تريدني أن أغير العالم؟ كيف أفعل هذا؟! من يطيق أن يغير العالم وحده؟!

وانتصب واقفا وأخذ يخطو خطواته المتمهلة متجها إلى نافذته، ومر الوقت بطيئا كخطواته، ثم قال: قليل تغيره يصنع عالما جديدا!!

ولم أجد ما أقول!!

# ( 14 )

ومازالت النافذة مضيئة كعادتها.. اقتربت منها ليتسع الضوء شيئا فشيئا فيلف المكان كله.. مازال الباب مفتوحا.. وهل أغلق يوما؟!

دخلت فوجدته ينظر إلى عالمه من نافذته.. كنت أعرف أنه قد أحس بوجودي.. ولم أنتظر طويلا.. جاءني ذلك الصوت العميق المهيب: ماذا بك؟ قلت: لا شيء.. كم من مرة وعدتني بأننا نستطيع أن نغير الكون حولنا، وفي كل مرة لا يحدث.. أفيق على واقع أسوأ وعالم يسوده القبح!

لم يلتفت إلي، ولكن الصوت جاء: وماذا تريد؟ تريد ألا تحاول؟ أم تريد أن تزيده قبحا؟

قلت: يا «أبو العلا».. لِمَ لا تفهمني؟ إنه الإحباط.. ما فائدة كل هذا؟

وازداد الصوت عمقا: سنغير في هذا الكون..

قلت: وهل نستطيع أن نغير الكون؟

التفت فجأة وقال: سنغير فيه.. سنغير شيئا ثم شيئا، فإذا

بنـا نغـيره..

لم أفهـم.. حاولـت أن أسـأل ولكنـي عجـزت، واصطدمـت بالعينـين الخضراويـن العميقتـين كعمـق الصـوت، وذبـت فيهـا، فـإذا العـالم مـن حـولي شـيئا فشـيئا يصبـح كالعينـين.. أخـضر!!

obeikan.com

# ( 15 )

ولاحت تلك النافذة المضيئة.. كلما اقتربت زاد نورها في عيني.. ومع النور تتسرب الراحة إلى القلب.. دخلت الغرفة من ذاك الباب المفتوح دوما.. لم أره يوما مغلقا..

كان ينظر في كتابه كعادته.. خرجت الكلمات مني وكأنني أستنجد به: آاااااه.. يا حبيبي.. أيرضيك؟! أيرضيك أن أصمت؟!

لم يرفع رأسه، وقال: في الصمت راحة.. تشعر بذلك؟

قلت: أيرضيك؟!

رفع رأسه، ولكن العيون لم تتلاقَ.. استدار وذهب إلى النافذة ونظر إلى عالمه طويلا، ثم قال: أيرضيك أنت؟!

قلت: يا «أبو العلا».. ألا تعطيني ردا؟ ألا تريد أن تريحني؟!

استمر في النظر إلى عالمه، وجاءني الصوت: الصمت علامة الرضا!

أخذت خطوة إليه: وقلت: يا «أبو العلا».. أنت تلاوعني.. تعرف ما أقصده، وتجيب عن شيء آخر.

لم يلتفت إليّ وقال: الصمت روية.. الصمت حكمة..

والتفت إليّ فجأة، واخترقتني عيناه الخضراوان، ثم قال: الصمت خوف!!

وشعرت بأن خوفي قد انزاح.. وصرخت بكلمة الحق!

obeikan.com

# ( 16 )

كان النور يلوح من بعيد.. كان نقطة صغيرة تتسع كلما اقتربت.. كانت النافذة مفتوحة كعادتها.. لم أرَها مغلقة مطلقا.. كنت أعرف أن البعد طال.. يقولون دوما إن «البعد جفا».. لا.. صحيح أني ابتعدت كثيرا لكن الجفاء أبدا لم يمس قلبي..

دخلت عليه خلوته.. كنت أعرف أنه يراني رغم انشغاله في كتابه.. اقتربت أكثر قائلا: أوحشتني يا «أبو العلا»..

لم يرفع رأسه ولكن رده جاءني: ولمَ تترك الوحشة تدخل قلبك؟

قلت: لا تلمني.. أنت تعرف كم أحبك.

قال: أعرف، ولكن للحب علامات.

قلت: وعلامة حبي الاشتياق.

قام من جلسته واقترب من نافذته التي تطل على عالمه وقال: وما أجمل أن يزيد الاشتياق وأنت في قرب الحبيب!

والتفت إليّ قائلا: اقترب أكثر يزد شوقك.

وأخذت خطوة إليه، وامتصتني عيناه الخضراوان، فذبت فيه شوقا!!

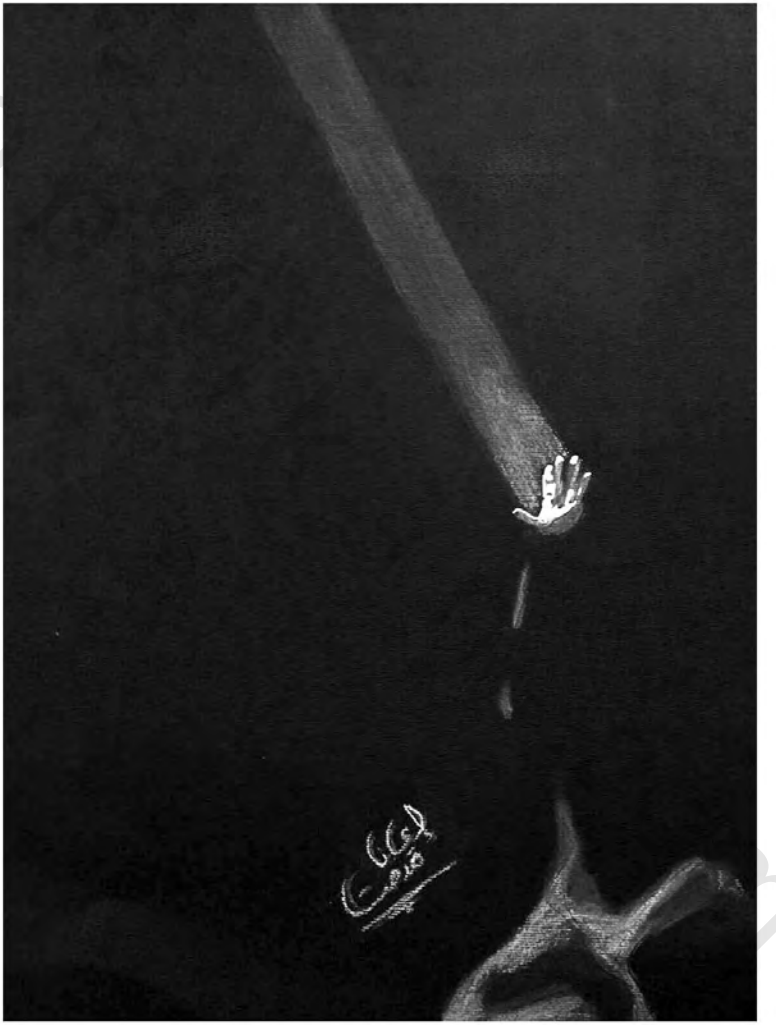

# ( 17 )

أربع ساعات من الألم.. تشعر بأنك تلفظ أنفاسك الأخيرة.. حقن ومحاليل.. دعوات واستغاثات.. ومع نهاية هذه اللحظات الصعبة تجده أمامك.. فلا تملك إلا أن تقول: «أوحشتني يا أبو العلا.. أرأيت؟! إنهم يقتلونني بالبطيء.. كم أنا في حاجة إليك!» فيبتسم ابتسامة تعيد الدماء إلى عروقك وتذوب في عينيه الخضراوين!

obeikan.com

# ( 18 )

دخلت عليه غرفته والعرق يتصبب مني.. يغطيني.. قلت له: يا «أبو العلا» لقد كان قريبا جدا.. أقرب مما كنت أتصور.. رأيته حقا بكل تفاصيله.. خوف شديد ملأ قلبي وارتجفت..

رفع رأسه إليّ، وعلى وجهه ابتسامة تبث الطمأنينة في النفس، وقال: وماذا حدث؟

قلت: سمعت صوتك يدوي في كل مكان، فزالت الرهبة والرجفة، وغاب، وراح معه الألم!

انتصب واقفا ثم ذهب إلى نافذته ناظرا إلى عالمه، ورأيت في عينيه السعادة فقد وصلت الرسالة!!

# ( 19 )

منذ الصبا كان أبو العلا دائما رفيقا لي.. مع كل موقف أقف فيه كنت أسأله: ماذا تفعل لو كنت مكاني يا صديقي؟ وفي كل مرة كان يدلي بدلوه.. لم يفهمه غيري ولم يفهمني مثله أحد.. والآن في ظل هذه المؤامرة الكبيرة التي نحياها وتسمى الدنيا.. ماذا كنت تفعل يا صديقي؟ هل ستقبل أن تكون طرفا فيها متصورا أنك تحارب كما تعودت دوما من أجل الحق والخير والجمال، أم أن هذه القيم النبيلة تكمن هذه المرة في أن تنزوي بعيدا عن أطراف هذه المؤامرة البغيضة؟ ماذا ستفعل يا أبا العلا؟

# ( 20 )

كان يطل على عالمه من نافذته كعادته.. ورغم ذلك كنت أحس بعينيه تنفذ إلى داخلي.. وجاءني صوته الجهوري قائلا: ماذا بك؟ قلت: أنت وحدك تعرف!

التفت إليّ فخرج البريق من عينيه الخضراوين ليسكنني.. شعرت بنوره يملأ قلبي..

قلت: لم أكن أريد أن يعرف أحد بلحظات ضعفه.. كنت أود أن أغلق عليه بابه فأخرج أنا وهو منتصرين..

قال: لا تكن أنانيا.. حبه يسكن في القلوب فدع القلوب كلها تؤنس قلبه، أما النصر فحادث لا محالة.

وسكت قليلا ثم قال: مثله لا يهزم!

وانزاحت الظلمة بهذا البريق الذي ملأ الغرفة كلها!

# ( 21 )

دخلت عليه خلوتنا فوجدته يقرأ ويدون كعادته.. اقتربت منه رويدا رويدا وقلت: آسف يا «أبو العلا».. أعرف أني أطلت الغيبة عليك ولكنك تعرف ما بي من هموم.

نظر إلي وفي عينيه الخضراوين نظرة السماح والرضا، ثم قال: الهم داء القلوب النقية وبلاء النفوس الرقيقة!

وبدت في عيني علامات الدهشة، فأضاف قائلا: ألا تعرف أن القلوب القاسية لا تعرف الهم؟!

زادت دهشتي، فربت على كتفي بتلك النظرة الحانية، ثم قال: لا تشغل بالك.. واعلم أن النقاء غالب وأن الرقة منتصرة..

ووجدت الهم ينزاح وأنا أغرق في نقاء عينيه ورقة نظرتها!

# ( 22 )

كنت أجلس واضعا رأسي بين قدميّ محاولا إخفاء هذه الدموع التي بدأت تبلل خدي.. شعرت به ينظر إليّ فرفعت رأسي إليه قائلا: «يا أبو العلا» أنت الوحيد الذي تعرفه حق المعرفة.. تعرف كم يحبك.. قد يبدو أنه يتجاهل وجودك أحيانا أو أنه لا يؤمن بك ولكنه أكثر من وجدتك في حضرته.. تعرف كم أحبه وأحبك.. لمَ تتجاهل كل هذا؟ لمَ توجه له الضربات الموجعة؟ لا أتحمل أن أراه وهو يتألم.. أتألم معه وأنت تشاهد آلامنا دون أن تمد لنا يد العون.. ألا تحبنا بقدر حبنا لك؟

# ( 23 )

وخرج صوته الجهوري العميق ليرن صداه في أذني: قليل من الدمع يغسل العين.. وقليل من الألم يطهر القلب!

صرخت بأعلى صوت: لا أفهمك.. أفهم فقط أني أحبه وأني لا أطيق أن يمسه الضر..

زاد صوته عمقا: آلامكما قد تذهب الضر عنكما فتحمل!

قالها ونظر إلى عالمه.. ذلك العالم الذي لا أراه!

opelkan.com

# ( 24 )

دخلت عليه فوجدته ينظر إلى عالمه من نافذته.. يتأمل تفاصيل لا أراها ولا يراها غيره.. كنت أرى خلف عينيه الخضراوين غضبا يخفيه.. اقتربت منه وسألت: أيعجبك ما حدث؟ أأنت راض عما يصير؟ فقط تنظر إليه من علٍ يا «أبو العلا»!

نظر إليّ وقال: أنت لا ترى ما أرى.. ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا!

وضعت رأسي بين قدمي لا أعرف إن كان حزنا أم إيمانا به! ووجدتني أصرخ: يا حبيبي وصديقي.. يا «أبو العلا» ليس لي سواك!

# ( 25 )

قلت له يا «أبو العلا» إنها أجمل هدية وُهبت إياها في حياتي.. أحبك فيها وأحبها فيك.. ما أجملها هدية!

نظر إليّ وعيناه الخضراوان تتألقان سعادة، وقال: لا حرمت منها أبدا..

فابتسمت وفي عينيه رأيت عينيها فاحتضنتهما بعيني وقلت: كل عام وأنا أحبكما!

قال: وأنتما بخير.

واتسعت ابتسامته!

# ( 26 )

كان مزيجا من الغضب والتوسل.. قلت له يا «أبو العلا» لماذا تريد أن تأخذه لنفسك فقط؟ لماذا تريد أن تأخذه مني؟ كل من أحبهم تستكثرهم عليّ.. أمس أخذت مني حبيبي الأول.. والآن.. تعرف أني أحبك ولكني أحبه أيضا.. أرجوك دعه معي.. هو الأخ والصديق والحبيب فلماذا تمنعني من صحبته؟

نظر إليّ بعينيه الخضراوين فشعرت وكأنه يربت بهما على كتفي.. ثم قال: ربما لم يأت الوقت بعد!

ونزلت دموعي مثل المطر!

# ( 27 )

دخلت عليه مبتهجا والسرور بادٍ على وجهي قائلا: أرأيت يا «أبو العلا» لقد كان حدثا فريدا.. لا أصدق أن اسمي قد خط بجوار هذه الأسماء اللامعة.. ورقة واحدة ضمتنا معا.

لم يلتفت إليّ.. ظل يدون في ذلك الكتاب أمامه..

أكملت قائلا: أتعرف.. لقد جمعتني منصة واحدة مع أستاذي.. كنت أشعر بأنها تميل يمينا ناحيته وأنا أتشبث في الجانب الآخر علني أستطيع أن أضيق الهوة بيننا.. الخوف يكاد يعصف بي.. ولكن نظراته التي كان يلقيها إليّ إعجابا وتشجيعا كانت تطرد الخوف.. قام من على المنصة لينضم إلى الحضور وكأنه يقول لي: «ها أنا أنضم لهذا الجمع الذي يسمعك».. حلقت في السماء وانطلقت.

قال لي دون أن يرفع رأسه: لست من حلقت.. بل هو.. رد الفضل إلى صاحبه!

ولم أجد كعادتي ما أقول!

# ( 28 )

كان غارقا في القراءة كعادته.. وكنت أنا أجلس بجانبه غارقا في أفكاري.. كل يغرق في بحره! أخذت أتأمله وأنظر إلى عينيه اللتين أغرق فيهما ثم قلت له: أتعرف يا «أبو العلا».. أنت الوحيد الذي أخرج أمامه ما في قلبي.. في كثير من الأوقات ينزف قلبي دما وأجدني مضطرا للابتسام في وجه الناس..

قال وهو مازال غارقا: تبسمك في وجه أخيك صدقة!

قلت: ولكن.. لا أحد يشعر بي.. لا أحد يفكر فيهم حتى في أن يوقف نزف قلبي.. ومطلوب مني دوما أن أطل نفس الطلة المبتسمة.. لم أعد أطيق هذا!

نظر لي واخترقتني عيناه: ألا يكفيك ما تدخله إلى قلوبهم من سرور؟!

خرجت الكلمة محملة بالألم: وقلبي أنا؟

قال: في سرور قلوبهم سروره.. انشر السرور يدخل السرور قلبك!

وغبت عن الدنيا فقد غرقت في عينيه!

# ( 29 )

هـا أنـا أسـتيقظ متألمـا.. لا أعـرف إن كان هـذا الألم الـذي يعتـصر معـدتي هـو السـبب، أم ذلـك الألم الـذي أشـعر بـه يعتـصر قلبـي!

كعـادتي لا أجـد سـواك يـا «أبـو العـلا» لأشـكو لـه.. ولـن أشـكو غـيرك وأنـت الصديـق المخلـص؟ أعـرف أنني السـبب.. أعـرف أنني ربـما أحمـل الأمـور أكثـر ممـا تحتمـل.. أعـرف ذلـك جيـدا.. ولكـن مـاذا أفعـل؟ مـع كل شيء أشـعر بأنـه ضـد الحـق والخـير والجـمال تتكاتـف الآلام وتحيـط بقلبـي لتعتـصره.. مـاذا أفعـل يـا صديقـي؟ لقـد أصابنـي الوهـن.. ضعفـت مقاومتـي.. قلبـي الشـاب الفتـيّ لم يعـد كـما كان.. هزمـه الشـيب عـلى مـا يبـدو!

للمـرة الأولى رأيـت الدمـوع في عينيـه الخضراويـن، أو ربـما تخيلـت ذلـك.. كان رقيقـا دائـما وحنونـا، ولكنـه كان قويـا.. هـا هـي الدمـوع ظاهـرة في عينيـه.

قلـت لـه أتبكـي يـا «أبـو العـلا» مـن أجـلي؟ ولمعـت العينـان الخـضراوان مجـددا وظهـر بريقهـما.. وقـال: كـم يقتـل البـشر دون أن يعلمـوا! يقتلـون بكلمـة.. يقتلـون حتـى بنظـرة..

ثـم نظـر مـن نافذتـه إلى عالمـه قائـلا: هـذا شيء لـو يعلمـون

عظيـــم!

ولم أجد ما أقول.. كان الألم مازال يعتصرني!

obeikan.com

# ( 30 )

قلت له يا «أبو العلا» أأنت راض عن هذا العالم الذي نعيش؟! قتل هنا وسفك دماء هناك.. حلم يضيع هنا وحلم يسرق هناك.. أين الخير والجمال؟ أين الحق يا من علمتني الحق؟ تكتفي أنت بالمشاهدة فقط.. تقرأ ما دون في الكتب وتسجل ما ترى فقط! لقد كفر أصحاب الحلم بحلمهم.. يا «أبو العلا» أنت من زرعت في قلبي الحلم وكفري به يعني كفري بك.. أيروق لك ذلك؟

لم يحرك ساكنا.. نظر لي وابتسامته الهادئة على وجهه: هذا هو الحلم الأعظم الذي كتب على أمثالك فقط أن يسعوا لتحقيقه.. لكن أن تحققه؟!

وسكت «أبو العلا» فقلت له: لن أحققه إذن؟!

قال وهو ينظر إلى عالمه من نافذته: اسع!

وشعرت كعادتي بعجزي أمامه.. وهممت بالكلام فلم أجد ما أقول.. وتمنيت لو أني أملك عينيه فأرى ما لا أرى!

# ( 31 )

قلت له يا «أبو العلا» إنهم يقولون إنك مهيب.. يخافونك ويخشون لقاءك.

كان يتأمل من نافذته.. ينظر إلى عالمه.. لم يلتفت إليّ وقال: وما رأيك أنت؟

قلت يا «أبو العلا» أنت حبيبي وقد قلت لهم هذا مرارا وتكرارا.. قلت لهم إنني ألتقيك في كل وقت دون خوف.. نعم أهابك ولكني أحبك.. كيف أخاف لقاءك وأنت حبيبي؟!

استدار إليّ ولمحت الابتسامة الغامضة ذاتها ثم قال: ربما يقصدون لقاء آخر!

هممت بأن أرد ولكن رجفة أصابت قلبي.. تأملته وذبت في عينيه الخضراوين فحلت السكينة قلبي وابتسمت ابتسامة الرضا ووددت لو قبلته بين عينيه!

# ( 32 )

كان يجلس في مكانه المعتاد دوما، ممسكا أحد كتبه.. قلت له يا «أبو العلا» سأقول لك سرا..

رفع رأسه عن كتابه، دون أن يتكلم، وفي عينيه انتظار السر.. قلت له: أتعرف أني أشعر بالضعف في كثير من الأوقات.. أحيانا تهاجمني أفكار وأحاول أن أطردها دون فائدة..

وضع كتابه على الطاولة جانبه واعتدل في جلسته مسددا سهام عينيه الخضراوين إلي فاخترقتني، وارتبكت.. حاولت أن أغير الموضوع أو أن أدور حوله من بعيد، ولكني شعرت بأني وقعت في الفخ..

أتعرف؟ أفكر أحيانا مثلا في أن أجري في الشارع دون أن يتقدني أحد.

عرفت من نظرته أنه يعرف أن الأمر لا يقتصر على مثل هذه الفكرة الساذجة..

قلت: أنت تفهم ماذا أقصد..

قال: افعل إذن!

قلت: ماذا؟ أتحثني على أن أفعل ما يخالف مبادئنا وأخلاقنا؟

ووقعت في الفخ ثانية! ولكنه قال: إن فعلت فلن تكون أنت.. فافعل إذن، ولنتعرف على الثاني الذي سيكون!

هممت بالرد، ولكن لم أجد ما أقول.. فسكت!

obeikan.com

# ( 33 )

دخلت عليه فجأة محدثا جلبة فلم يلتفت إليّ ولم يعبأ بوجودي.. قلت له يا «أبو العلا» لقد هجرتني ولم تسأل عني لفترة .. أهكذا يعامل الحبيب حبيبه؟

لم يرفع رأسه عن كتابه وقال: كنت معك دوما وهجرتني أنت!

قلت له مبتسما بخبث: لكنك في قلبي دوما.

فرفع رأسه عن كتابه وابتسم ابتسامته الغامضة قائلا: أعرف!

ثم ابتعدت عني عيناه الخضراوان إلى حيث لا أرى!

# ( 34 )

أعـرف أنـك يـا «أبـو العـلا» لم تنسـني أبـدا، ولم تـرد لي مطلبـا قـط.. أعـرف أنـك قريـب منـي في كل وقـت، ولم تفارقني مطلقـا.. أعـرف أني كلـما دعوتـك استجبت، وكلـما ناديتـك لبيت.. أعـرف كل هـذا ولكنـي أجـدك بعيـدا عـن آخريـن.. أراك لا تجيـب لهـم دعـوة ولا تلبـي لهـم نـداء.. كيـف هـذا وأنـت مـن توصينـي بـأن أكـون قريبـا مـن الجميـع وأسـعى لأن تكـون يـدي ممـدودة لهـم في كل حـين؟!

تنهـد تنهيـدة عميقـة.. وبـدا الحـزن في عينيـه الخضراويـن وهـو يعـدل وضـع نظارتـه عليهـا وخرجـت منـه الكلـمات محملـة بالمـرارة وهـو يقـول: لم يدعنـي أحـد منهـم.. ولم أسـمع نـداء لهـم!!

وزاغت عيناه بعيدا عني!

# ( 35 )

قلت له يا «أبو العلا» ألا تحب العدل؟ تشاهد كل هذا الظلم ولا تحرك ساكنا.. تدعوني فقط لمواجهته، وأنت تشاهده ليل نهار ولا تتدخل.. لا تبذل ولو محاولة لمواجهته!

نظر لي غير عابئ، وكأنه لا يسمعني.. وأشاح بوجهه بعيدا..

قلت له: تكلم يا «أبو العلا».. افعل شيئا.. سكوتك يحيرني.. يقهرني.. يجعلني أكاد أكفر بحبي لك.. لِمَ تسكت وأنت الداعي دوما لمواجهة كل ظلم؟

نظر إليّ واخترقتني عيناه الخضراوان وكأنهما يقولان الكثير.. نزلت السكينة قلبي.. ثم سمعت الصوت لا أعرف إن كان خارجا منه أم من مكان لا أعلمه: دعهم.. في طغيانهم يعمهون!

# ( 36 )

قلت له يا «أبو العلا» مازلت تتركني لتلك الكوابيس التي تطاردني.. ألا يكفيك ما أنا فيه؟ ألا تعرف أني لم أنم إلا في الثالثة واستيقظت في السادسة؟

نظر إليّ نظرة إشفاق وقال: كوابيسك منك وليست مني!

ثم أطرق قائلا: كوابيس الليل أفضل من كوابيس النهار!

obeikan.com

# ( 37 )

قلت له: يا «أبو العلا».. يسألونني عنك: أهو أستاذك ومعلمك وأنت تلميذه؟ قلت: لا!

قالوا: أهو شيخك وأنت مريده؟

قلت: لا!

قالوا: فمن هو؟

قلت: إنه هو.. إنه حبيبي!

فلمعت عيناه الخضراوان وترقرقتا بدموع الفرحة واحتضنني بهما!

obeikan.com

# ( 38 )

أتعرف يا «أبو العلا» أني أحيانا أشعر بأنك لا تحبني.. أنت تتعمد في كثير من الأحيان أن تخرجني من حالة النشوة التي أعيشها.. تتعمد أن تصدمني.. أشعر بأني في عينيك دائما من المخطئين.

هكذا قلت له، وإذا به يضع كتابا كان يمسكه على الطاولة أمامه ويهم بالقيام والخروج من الغرفة فاستوقفته قائلا: إلى أين؟

قال سأتركك لتعرف مدى حبي لك!

قلت: ولكنك تعرف أني لا أقوى على فراقك.

فابتسم ابتسامته الحنون وكأنه يقول: وماذا أفعل لأرضيك؟

قلت وأنا أخفض رأسي خجلا: أنا آسف يا «أبو العلا»..

اتسعت ابتسامته ورأيت عينيه الخضراوين تلمعان والدموع تملأهما، ثم قال: ارفع رأسك.. ألا يعاتب الحبيب حبيبه؟!

ثم عاد ليمسك كتابه وإذا بعيني تقع على عنوانه.. كان «طريق المحبين»!

# ( 39 )

دخلت عليه فخلع نظارته ورفع رأسه عن الكتاب الذي بين يديه قائلا وهو يبتسم: أراك سعيدا..

قلت له: نعم.. سعادتي لا توصف ففي عيون طلابي الجدد أرى نجاحي وأشعر بأني حجزت مكانا في قلوبهم.

غابت ابتسامته فجأة وأشاح بوجهه عني عائدا لكتابه، فتعجبت وهممت أسأله منفعلا: أتستكثر علي يا «أبو العلا» أن أسعد بنجاحي وحب الناس؟

عاود النظر إلي قائلا: هذا حمل تنوء به الجبال فتحمل!

# ( 40 )

دخل إليّ فوجدني مهموما حزينا متعبا منهكا، فسألني وهو العارف ببواطن الأمور: ماذا بك؟

فقلت له يا «أبو العلا» لقد تحولت إلى ماكينة لا تهدأ ليل نهار، ولا أكاد أجد قليلا من الوقت حتى للتفكير.. حتى الشعر هجرني!

فابتسم ابتسامته المعهودة وقال: شعرك لن يهجرك فهو بداخلك ولولاه لهلكت!

ثم اتسعت الابتسامة وهو يقول: وحيك يتدلل عليك!

# ( 41 )

أيقظني ذلك الكابوس في الرابعة فجرا.. حاولت أن أنساه لأعود للنوم فلديّ عمل في الصباح الباكر.. آلام الحنجرة تسيطر عليّ.. يذهب النوم.. أسمع صوت أذان الفجر يردد: «الصلاة خير من النوم».. فرصة جيدة لصلاة الفجر في المسجد.. أغالب آلامي وأذهب.. أخطو أولى خطواتي هناك.. تطالعني عيناه الخضراوان وابتسامته الغامضة.. أنت هنا إذن يا «أبو العلا».. عاجلني بالسؤال: ماذا رأيت؟

لم أسأله كيف عرف، فهو يعرف عادة.. قلت له بصوتي المبحوح الذي لا يكاد يخرج: رأيت أن إحدى طالباتي، لم أرها مطلقا في حياتي، تهاجمني بجنون وتعتدي عليّ دون سبب.

قال: ألم ترها أبدا؟

قلت: لا.

قال: ابحث عمن أغضبت!

وأقيمت الصلاة!

# ( 42 )

قلت له يا «أبو العلا» لقد تعبت كثيرا.. لقد أضناني العمل.. بدأ شبابي يخونني ولياقتي تخذلني.. لم أعد أتحمل يا صديقي.. لماذا لا أريح نفسي؟ لقد بدا وكأنني أبحث عن التعب.. وانظر إلى من هم مثلي لتعرف!

خرجت منه زفرة وهو يعدل وضع نظارته على عينيه الخضراوين ثم قال بصوت لا يكاد يسمع وكأنه يكلم نفسه: أما التعب فيهون، وأما الصبر فواجب، وأما الأجر فقد أخذت!

ثم أشاح بوجهه بعيدا عني مكملا: وما أسوأ النظر إلى الغير!

obeikan.com

# ( 43 )

قلت له يا «أبو العلا» لقد أخطأت اليوم.. أعرف أنه لا يفهمني بل ربما لا يحبني وأن قيمنا التي نؤمن بها ليست واحدة والدليل على ذلك ما فعل، ورغم ذلك حاولت جذبه ناحيتي.. حاولت جذبه لأني أؤمن بالحق والخير والجمال وهذه القيم دفعتني لأن أحاول أن أجذبه من طريقه الذي اختار.. لقد أخطأت حين فعلت ذلك فقد ظهرت ضعيفا أحاول التودد إليه وكأني أنفي عن نفسي تهمة ما يضمرها هو إليّ..

أغلق كتابه ونظر إليّ نظرة طويلة وقال: قوتك فيما توهمت أنه ضعفك! دعهم فإنهم لا يعلمون!

# ( 44 )

قلت له يا «أبو العلا» لقد سألتني ابنتي عن سر اهتمامي بطلابي وانشغالي بهم رغم كثرة مشاغلي..

نظر لي وعلى وجهه ابتسامة خبيثة وكأنني وقعت في الفخ قائلا: وبماذا أجبت؟

فرددت: قلت لها إن هذا واجبي وإنني أود أن أكون عند حسن ظنهم بي دوما وأن أكون كبيرا في عيونهم.

وإذا به يقوم متوجها إلى مكتبته معطيا ظهره لي وهو يتظاهر بالبحث عن أحد كتبه فعرفت أني أغضبته.. قلت له: ماذا أغضبك مني الآن؟

قال وظهره لي: مازلت مشغولا بنفسك!

# ( 45 )

دخلت عليه خلوته رغم سماعي صوت «الست» يأتي من خلف الباب.. بدا عليه الضيق لقطع حالة النشوة التي يعيشها مع «سيرة الحب».. قلت له ضاحكا وأنا أخفي ارتباكي: إن كل من يقابلني يسألني عنك.. الجميع يريد التعرف عليك.. لقد أصبحت نجما يا «أبو العلا»..

قال لي ومازال الضيق باديا على وجهه: لا أريد أن أكون نجما.

وقبل أن أسأله عن السبب بادرني قائلا: لا أحب أن أكون من الآفلين!

وذهب مع صوت «الست»!

# ( 46 )

ذكرني «أبو العلا» بما دار بيننا من حديث في مثل هذا الوقت من العام الماضي.. وقتها قلت له إن الأمر شديد الصعوبة وإنني أتخوف من فشل التجربة كلها، فقال لي وهو يبدو غير عابئ: ستنجح!

اليوم عاد ليذكرني قائلا: افعلها ثانية!

obeikan.com

# ( 47 )

قلت له يا «أبو العلا» لقد ظهر لي في صورتها.. إنها الشيطان أتى ليغويَني..

أخذ يقلب في كتابه وكأنه لم يسمع قائلا: وماذا فعلت؟ قلت وأنا أشعر بنشوة الانتصار: ابتعدت عنه وسرت في طريق آخر..

استمر في النظر إلى كتابه وإن بدت ابتسامته الغامضة واضحة وقال: لم تستطع مواجهته إذن!

opelkan.com

# ( 48 )

قلت له يا «أبو العلا» لماذا تركتني الآن وأنا في أشد الحاجة إليك؟ هذا زمن ليس زماني.. لقد جئت فى الموعد الخطأ، وببعدك عني أشعر بأني مرغم على الرحيل..

وأغاظتني ابتسامته الهادئة الغامضة دوما وقال: إن لم تصنع أنت زمانك فلترحل!

obeikan.com

# ( 49 )

قلت له يا «أبو العلا» يا صديقي لقد ضاق صدري بما تقول لي دائما.. تحرضني دائما على قول الحق، وها أنا كلما قلته زاد غضب الناس مني وتفرقوا من حولي، فماذا أفعل؟

اتسعت ابتسامته وقال لي، وهو يضع كتابه في مكتبته غير ناظر إليّ: كلما قلت الحق اقتربت من الحق!

obeikan.com

# ( 50 )

قلت له يا «أبو العلا» لقد احترت معك.. حين يكون الحزن والهم مخيمين على الناس أراك مبتسما ممتلئا بالأمل، وها هو يوم عيد فإذا بي أراك حزينا مهموما.. نظر إليّ قائلا: في وقت الحزن أسعى لبث الأمل في النفوس.. أما اليوم فيشغلني من لا يستطيع أن يشعر بأننا في عيد!

ثم ربت على كتفي، وخرجت ابتسامته التي عهدتها وقال: كل عام وأنت بخير!

# ( 51 )

دخل علي «أبو العلا» غرفتي فوجدني مشغولا مهموما، فقال لي وهو يضع يده على كتفي: ماذا بك؟ قلت له: كنت أود أن أكون هناك.. أن أكون وسطهم. فابتسم ابتسامته المألوفة الغامضة وقال مقتربا من الباب: ألست هناك؟! ثم أغلق الباب خلفه!

obeikan.com

# ( 52 )

قلت له يا «أبو العلا» ماذا أفعل؟ أشار إلى الطاولة أمامنا وقال لي: هل تترك هذه الطاولة الصغيرة فراغا في الغرفة إذا حملناها إلى الخارج؟ قلت: لا.. قال: لماذا؟ قلت: لأنها صغيرة لا تشغل حيزا في الغرفة. تبسّم ثم قال: كن كبيرا تشغل حيزا كبيرا، وعندما تمضي ستترك فراغا بقدر حجمك!

قلت: وكيف لي أن أكون كذلك؟ فزادت ابتسامته الغامضة، وقال: ستعرف.. وتركني وانصرف فوجدتني أمام فراغ كبير لا أستطيع وصفه!!

قلت له غاضبا يا «أبو العلا» ألا تذكر ما قلت لي عندما فقدت سنوات من حياتي؟ كنت مؤهلا للسير في طريق الفشل دون رجعة.. وقتها قلت لي إنني سأعوض بدلا منها الكثير! صحيح أنني تركت طريق الفشل، ولكني لم أعوض تلك السنوات، بل ضاع غيرها!

غابت ابتسامته.. قام ليحضر شيئا من مكتبته العملاقة كعادته عندما يحاول أن يخفي غضبه فيها، وجاءني السؤال: ألم يحدث؟!

# ( 53 )

قلت له: يا «أبو العلا» يا صديقي أنت سبب شقائي! تجنبت النظر إلى عينه التي ستكشف فورا كذب ادعائي ثم تشجعت مكملا: نعم ألم تكن دائما دافعا لي على قول الحق مهما كلفني ذلك؟ إنني أجد نفسي بين أمرين لا ثالث لهما؛ إما أن أقوله وهذا يوقعني في مشاكل جمة أو أن أكتمه حينا فيؤرقني ضميري وأعيش عذابا لا يطاق.

ودون قصد اصطدمت عيني بعينه فاخترقتني وتبسم كالعادة وتحولت الابتسامة إلى ضحكة أخذت في الاتساع.. وتركني وقد تحولت إلى قهقهة عالية!

# ( 54 )

جلست بين يديه كعادتي مثل طفل صغير ينتظر النصح من والده.. اخترقتني عيناه الخضراوان الغائرتان في ذلك الكهف العميق.. وجه سهامه إلى عيني ثم تبسم ابتسامته الغامضة.. قال لي: ماذا بك؟ قلت له يا «أبو العلا».. إن أصدقائي لا يصدقون أنك من لحم ودم.. لا يدركون أني لا أستطيع أن أترك يوما يمر دون أن أراك.. أن تربت بيديك على كتفي.. أن تضمني بنظراتك الحانية الثاقبة..

وكالعادة زادت الابتسامة على وجهه.. ربت بيديه على كتفي ثم انصرف!

# ( 55 )

في نهاية جلستنا المعتادة قلت لصديقي «أبو العلا» إنني أشعر بغصة شديدة فثمة فارق كبير وواضح ومرهق ومؤلم أيضا بين ما أحلم به وأؤمن به وما هو واقع ومحسوس وملموس.. نظر إليّ تلك النظرة العصية على الفهم ثم تبسم قائلا: إنها بداية الطريق! حاولت أن أستنطقه لأفهم.. زادت ابتسامته غموضا ثم رحل!

# ( 56 )

قلت لصديقي «أبو العلا»: إنه لم يرتكب أية مخالفة قانونية. فقال لي: ولكن عمله جاء مخالفا للقيم والأخلاق. تعجبت من كلامه وهببت سائلا: وكيف يكون مخالفا للقيم وهو ليس ضد القانون؟ جاءني الرد من خلال تلك الابتسامة الغامضة التي ألفتها، وقال لي: هيا.. قم وتحدث معه وافتح معه صفحة جديدة. وكعادتي لم أفهم فتساءلت: كيف أتحدث معه وقد خالف الأخلاق؟ فابتسم ثانية قائلا: من كان منكم بلا خطيئة.. ثم أضاف قائلا: إن لم تتحدث معه وتفتح له الطريق فقد خسرته للأبد ولن تلوم ساعتها إلا نفسك. سكت وأنا أنظر له مندهشا وعلى وجهه الابتسامة نفسها، ثم غاب!

# ( 57 )

أشعر بأن اللون الأزرق هو اللون الغالب على المكان.. ورغم أن الأبيض هو اللون المسيطر فإن تلك الأبواب الزرقاء على ما يبدو هي التي أعطتني ذلك الإحساس.. عشر ساعات وربما أكثر وأنا أشعر بذلك الألم الذي أعرفه جيدا.. ذلك الألم الذي يأتي تمهيدا لآلام أكبر.. ولكن تلك الآلام لم تأت.. عشر ساعات مع تلك الآلام الصغرى.. الألم محتمل ولكن طول الوقت بدأ يجهز على مقاومتي شيئا فشيئا.. تعلقت عيني بباب الغرفة الأزرق.. وبدأت أنتظر متلهفا مفعول ذلك المسكن الذي طلبته بعد أن فاض الكيل.. وفتح الباب!

كان هو.. «يااااه.. أين أنت يا أبو العلا؟ كنت أعرف أنك ستأتي».. تلقفتني تلك الابتسامة الصافية.. اقترب مني ووضع يده على جبيني، وأرسل إليّ نظرته التي أعشقها.. وبدأ المسكن يأتي بنتيجته المنتظرة.. ورحت في النوم!

حين استيقظت بعد قليل لم يكن موجودا.. وتذكرت تلك النظرة التي أرسلها إليّ قبل أن أغيب عنه.. هاتين العينين الخضراوين.. وعرفت سر اللون الأزرق الغالب على المكان!

# ( 58 )

أدار ظهره لي وقال: حين يغطي القلب غشاوة الكره والغل، فلا أمل في عالم يغلفه الحب!

قالها وانصرف.. وأخذت أنادي: «أبو العلا.. أبو العلا».. ولكنه لم يجب!

obeikan.com

# ( 59 )

سـدد سـهام عينيـه الخضراويـن إليّ قائـلا: حتـى في رمضـان تضـن علينـا بالزيـارة؟

هربت بعيني وقلت: يا «أبو العلا» أنت تعرف الحياة.. دنيا!

obeikan.com

# ( 60 )

قلت له: يا «أبو العلا» أعرف أني قد أهملتك..

لم يلتفت إليّ وخرجت الكلمات من فمه هادئة: لقد أهملت نفسك!

obeikan.com

# ( 61 )

قلت له: يا «أبو العلا» لقد ضقت به.. إنه يتعمد أن يسيء إلي.. الكبر تراه في كل حركة منه.. في كل لفتاته.. يفرق الشمل ولا يجمع.. يهدم ولا يبني.. لا يرى إلا نفسه.. نفسه فقط..

لم يلتفت إليّ.. أشاح بوجهه عني وذهب إلى نافذته..

قلت له: لم لا ترد؟

قال وهو هناك: ونفسك أنت!

قلت: وما شأن نفسي؟

قال: لو لم تكن تشغلك، لما التفت له!

لم أفهم.. وانتظرت أن يقول شيئا ولكنه لم يفعل.. وهممت أن أتكلم لولا أنه التفت فجأة وقال: اقتل الكبر داخلك تكن كبيرا.. وساعتها لن يشغلك أحد..

وطأطأت رأسي خجلا!!!

# ( 62 )

دخلت عليه غرفته مفتوحة الباب دوما، ودموعي تكاد تقفز من عيني.. وجدته جالسا على كرسيه.. لم يعرني اهتماما.. اقتربت منه.. جلست بين يديه.. مر وقت دون حديث..

ثم قلت له: يا «أبو العلا».. أنت تعرف كم أحبه..

قال: أعرف..

قلت: وتعرف كم أنا مشغول به وعليه..

قال: أعرف..

قلت: ولكنه غاضب مني..

لم يرد..

قلت: أعرف أن الحياة تأخذني، فأقصر في حقه، ولكني لا أطيق غضبه..

قام متجها إلى نافذته.. وانتظرت أن يرد، ولكنه لم يفعل..

قلت: لقد اتهمني بأني منكب على ذاتي، لست مشغولا بسواها..

التفت إليّ قائلا: هذا إذن ما أحزنك..

قلت: كنت أحسب أنه يفهمني.. تهمته هذه بعيدة كل البعد عني.. لو كنت كذلك لكنت في مكان آخر أعتقد أني أستحقه..

اقترب مني ثانية.. واخترقتني العينان الخضراوان، وشعرت بهما تربتان على كتفي، وقال: هذا لوم المحب، وأنت تعرف.. ثم إن كلماته أصابت منك موضعا أنت تعرفه!

لم أفهم، وهممت بأن أسأل، فإذا به يكمل: وجاهد النفس والشيطان واعصهما.. وإن هما محضاك النصح فاتهم!

# ( 63 )

قلت له: يا «أبو العلا»... إنها الغواية..

رفع رأسه من ذلك الكتاب بين يديه.. وأطال النظر إليّ ثم قال: هي في كل مكان حولك..

قلت: لقد اقتربت مني فأدركني..

قام من جلسته واقترب مني ثم نظر في عيني مباشرة، وشعرت بنظرته تخترقني ثم قال: أدرك نفسك!

قلت: كيف؟ إنها تحيط بي من كل جانب.. تُسقطني في براثنها...

وقاطعني على عكس عادته قائلا: وماذا فعلت؟

قلت: ظننت أني سأنتصر عليها، ولكني وجدتها قوية.. قوية هي.. أخاف ألا أقدر عليها.. سأهرب.. سأفر منها وأنجو بنفسي..

وجاء صوته عميقا: لا يفر إلا الجبناء!

قلت: لا قِبل لي بها.. ماذا أستطيع أن أفعل؟

ولمحت في عينيه الخضراوين ابتسامة خفية.. واستدار نحو نافذته ناظرا إلى عالمه.. ثم قال: اقترب منها أكثر.. واجهها.. لا تخف.. ستنتصر..

وغاب الخوف شيئا فشيئا وحلت السكينة مكانه، وشعرت بأني قد انتصرت!

obeikan.com

# ( 64 )

كان ممسكا بكتابه الذي يدون فيه كل صغيرة وكبيرة حين دخلت عليه.. كان آخر لقاء لي معه على غير ما يرام.. يومها كانت رائحة الموت تسيطر على كل شيء.. اقتربت منه ثم قلت مناجيا: أوحشتني يا «أبو العلا» ..

نظر لي قائلا: على قدر الحب يكون الفقد!

قلت: أنت تعرف كم أحبك..

قال: على قدر الحب يكون القرب!

قلت: أنت تعرف أن ذلك كان خارجا عن إرادتي وأن الحياة صعبة..

قال: بقدر الحب تكون المقاومة!

قلت: أحيانا تشغلنا الحياة فتأخذنا من أحب الناس بل تجعلنا ننسى أنفسنا..

قال: بقدر الحب تكون الذكرى!

لم أجد ما أقول، فنظرت إلى الأرض هامسا: سامحني..

فقال: بقدر الحب يكون العفو!

رفعت رأسي ونظرت إليه فذبت في عينيه الخضراوين!

obeikan.com

# ( 65 )

كنت أعرف أني قد ابتعدت كثيرا.. غبت فترة طويلة عنه.. دقات قلبي كانت تعلو وأنا أتسلل إلى غرفته.. ماذا سيفعل معي بعد كل هذه الغيبة الطويلة؟ وضعت قدمي داخل الغرفة.. ها هو كما تركته في جلسته ذاتها.. منكبا على كتبه.. كنت أعرف أنه شعر بوجودي رغم أنه لم يُبدِ ذلك.. لم يرفع عينيه عن كتبه.. قلت له: أبو العلا.. لقد... لقد افتقدتك كثيرا.. أعرف مدى تقصيري ولكنها الحياة.. تأخذنا بعيدا عن كل من نحبهم..

لم يرفع رأسه.. وقال: وماذا فكرك بي؟ الحياة أبعدتك والموت قربك؟

كيف عرف؟ هل تركت تلك اللحظات علامات على وجهي؟ هل تخرج مني رائحة الموت الذي رأيته في تلك اللحظات التي لن تنسى.. غسل وقبر ودفن وبكاء وفقد وعزاء.. لحظات تترك الجرح في القلوب.. ولكن كيف عرف كل ذلك؟ وكيف عرف أن هذا هو ما أتى بي؟ كيف عرف أنه الموت؟

لم تكن المرة الأولى التي يعرف ما بداخلي.. هذه عادته..

وهنا رفع رأسه.. نظر إليّ بعينيه الخضراوين.. وسط هذا الخضار كانت هناك نقطة حمراء.. كيف لم تبدُ لي قبل ذلك؟ شعرت بأنها تتسع وشعرت بالخوف يجتاح قلبي.. ولكنه رغم ذلك اقترب مني وضمني في صدره ضمة كنت أتوق إليها.. ثم دفعني إلى الخلف ممسكا بكتفي ونظر إليّ.. وكم كان غريبا أنني لم أجد سوى العينين الخضراوين فقط.. كان الخضار يحيطني من كل جانب!

obeikan.com

# ( 66 )

لم أكن أعرف إلى أين أذهب.. كان خليط من الألم والحزن يملأ القلب.. نور الأمل يتسرب.. يغيب عني.. ماذا عساي أن أفعل؟!

جاءني الصوت من داخلي.. أهذه هي المرة الأولى التي تشعر فيها بهذا الشعور؟ أهذه هي المرة الأولى التي تشعر فيها بالإحباط يحيط بك؟

أجبت: لا لم تكن هذه هي المرة الأولى.. ما أسوأ أن يكون العالم بهذه الصورة!

لم أعد أحتمل ذلك العالم البغيض..

نظرت إلى السماء باحثا عن بارقة أمل.. وقعت عيناي على تلك الغرفة بالأعلى.. لا حل سواه.. كم من مرة وجدت الحل عنده!

كان هو الصديق المعين.. كم أحبه!

أبو العلا.. هذا الذي أحبه كما لم أحب أحدًا من قبل..

لا أتذكر متى عرفته، لكني عرفته يوم تفتحت عيناي على

تلك الحياة.. كان دوما مخرجي من آلامي.. طوق النجاة لي.. بوابة أحلامي.. لم يخذلني يوما.. كنت أهواه وأهابه.. أحبه وأخشاه.. عاودت النظر مرة أخرى لأعلى وسألت نفسي: كيف ساقتني قدماي إلى هنا.. إليه.. إلى «أبو العلا» ؟!

صعدت إلى حيث كان.. تسللت إلى خلوته تلك التي تثير في نفسي الراحة والرهبة في مزيج لا يُعتقد في وجوده.. كان منكبا على كتابه، ممسكا قلمه، مدونا تارة، وقارئا تارة أخرى.. رغم أني لم أصدر صوتا فقد كنت على يقين أنه يراني.. هكذا تعودت منه.. يراني دوما.. يكشفني.. يقرأ أفكاري.. كان يعرفني أكثر من نفسي.. ولم يخلف ظني!

جاءني صوته العميق دون أن يرفع رأسه.. قالها في مزيج آخر لا تظن أن له وجودا.. مزيج من اللوم والشوق.. الترحيب والتأنيب.. قالها: وماذا ذكرك بي؟

كدت أصرخ قائلا: وهل لمثلي أن ينساك؟! ما من أحد يراك وينساك.. كدت أقولها.. ولكني أطرقت برأسي ثم قلت: تعرف الحياة ومشاغلها ومتاعبها..

رفع رأسه فاخترقتني عيناه الخضراوان كعادته وقال: الحياة؟! ولِمَ أتيت شاكيا منها إذن وقد شغلتك عني؟ لِمَ تسلم لها نفسك إذن؟ لِمَ تلقي بنفسك في أحضانها ثم تعود لتشكو ثانية؟

ولم أجد ردا.. لم تكن المرة الأولى التي يعرف فيها شكواي بنظرة من تلك العينين الخضراوين.. أبعدت عيني عنه وكأني أحاول الفرار من سهام عينيه..قلت: أوليست تلك الحياة التي أوصيتني دوما بحبها؟ أولست من زرعت حبها في قلبي؟

ترك أوراقه وكتبه واقترب من النافذة.. تلك النافذة التي يطل منها على عالمه..

وقال: بلى غرست في قلبك حب الحياة..

اقتربت منه وهممت بالرد فلم أجد ما أقول.. ولم يمهلني وقتا.. استدار إليّ ثانية فاخترقتني سهام عينيه الخضراوين من جديد.. وقال: ولكن أيّ حياة؟

ورددت بنظرة من عيني: أهناك حياتان؟ فقال: بل حيوات.. لكلٍ حياة!

لم أفهم.. استدار مرة أخرى موجها ناظريه إلى نافذته وقال: تكلم.. أريد أن أسمعك..

قلت: جئت أسألك عما حدثتني عنه.. ألم تحدثني عن الحب.. العدل.. الرحمة.. الوفاء.. الإخلاص.. لقد آمنت بها جميعا.. آمنت بها وبك.. كل كلمة قلتها وَجَدَتْ محلا في قلبي فأصبحت دقة من دقاته.. وها هي الدقات تخفت أمام تلك الحياة، لتعلو

أصوات أخرى لم أسمعها في معيتك.. أين هذا الذي وعدت؟

وجاءني الرد.. نظرة بطرف العين.. سهم جديد من سهامه..

أكملت: وماذا فعلت أمام كل هذا؟ تجلس هنا في خلوتك، قارئا في كتبك، مسجلا في أوراقك، ناظرا من نافذتك.. ترى كل شيء ولا تحرك ساكنا.. أين الخير والحق والجمال؟ أين ما وعدتني به؟

لم يلتفت إليّ هذه المرة.. وجاءني الرد: اذهب إلى حياتك..

قالها حاسمة.. وعرفت مدى جرمي.. ماذا أفعل الآن؟

ولم ينتظر هو كثيرا.. فقد جاءتني كلمته الثانية حانية: وستأتي يوما!

ولم أجد إلا أن أذهب.. وقلبي معلق بالعودة!

# ( 67 )

رغم أني غادرتك فإنك لم تفارقني.. قلت لي: «يوما ستأتي!» وستأتي إليك ربما أقرب مما تخيل، فهل سيكون بابك مفتوحا؟ أسمعك تقول: وهل أُغلق بابي يوما؟!

أعرف ذلك.. ولهذا سآتي إليك يا صديقي.. يا حبيبي.. يا «أبو العلا»..

هكذا كنت أقول لنفسي وأنا أغادر خلوته.. وها أنا آتي إليه مشتاقا.. آه لو يعرف كم أحبه.. دخلت إلى خلوته.. كان الباب مفتوحا.. المكان هو المكان.. الكتاب هو الكتاب.. النافذة هي النافذة.. وهو كما هو.. «أبو العلا».. الوحيد الذي تغير كان أنا.. كان اشتياقي إليه كبيرا، فهممت أن أحتضنه لكني تذكرت أني لم أفعل ذلك يوما.. ربما الهيبة.. ربما أشياء أخرى؟!

وقفت بين يديه مطأطأ الرأس.. كطفل صغير يعرف خطأه وينتظر العقاب ممنيا النفس بأن تدب الرحمة في قلب أبيه فيصفح عنه.. رفع رأسه إليّ مهملا كتابه الذي بين يديه.. قال بلهجة من يعرف قدومي: لم تتأخر كثيرا!!

لم أعرف بماذا أرد.. كنت أود أن ألقي همومي بين يديه.. أحمال

ثقيلة على كتفي أتمنى أن يساعدني في حملها.. رفعت رأسي ونظرت إليه.. التقت العيون.. واخترقتني العينان الخضراوان كعادتهما.. وذهبت الآلام لتحل محلها الآمال والأحلام.. وخرجت مني الكلمة عالية مدوية: أحبك.. أحبك يا.. يا «أبو العلا»..

ابتسم ابتسامة حانية لم تفقده قدرا من مهابته.. كانت بلسما لجراحي وشفاء لسقمي.. وخرجت منه الكلمات هادئة: اتهمتني بالجلوس هنا دون أن أحرك ساكنا إزاء ما يحدث في عالمك.. تساءلت عن الخير والحق والجمال.. ألا تراها من حولك.. الخير باق والحق نافذ والجمال كائن!

ولم أستطع التحكم في نفسي.. خرجت مني الكلمات رغما عني.. أين؟ لم أرَ هذا مطلقا إلا في كلماتك تلك.. كلماتك التي زرعتها في قلبي فلما نمت وترعرعت لم أجد لها وجودا..

واتسعت ابتسامته.. أخذ خطوة إلى النافذة ونظر إلى عالمه.. وجاءتني الكلمات: قلتها بنفسك.. الخير والحق والجمال.. كلها تسكن في القلوب.. لكن القلوب تقلب.. فإذا قلبتها وجدت الوجه الآخر.. ذلك الوجه الذي لا ترى غيره الآن، فإن أردت أن ترى ما تريد فعدلها تجد ما يسرك..

قلت: كيف؟ وماذا أستطيع أن أفعل وحدي؟

وجاءني صوته أكثر عمقا: املأ قلبك بالحب.. سيفيض على

من حولك.. سيسود الحب الناس.. وقتها.. سيزيح الخير الشر والحق الباطل والجمال القبح.. واندفعت قائلا: رومانسية حالمة تصطدم مع الواقع فلا نجد لها وجودا..

لم يحرك ساكنا وظل ناظرا من نافذته إلى عالمه.. ثم قال: بالحلم تصنع الأمل وبالحب تصنع حياة.. حياة تحياها.. تملكها لا تملكك..

واستدار استدارة مفاجئة.. ورأيت ذلك البريق في عينيه.. واخترقتني سهام عينيه الخضراوين.. ووجدت الأخضر يحيطني من كل جانب!!

حين خرجت من عنده كنت أشعر بأني أطير من على الأرض.. أرفرف فوق ذلك الخضار الذي يحيطني.. وحسمت أمري.. وامتلأ قلبي حبا!!

# ( 68 )

كنت أشعر بأن الآلام تحيط بي من كل جانب.. كأنها قد اتفقت جميعا على أن تحاصرني.. تفترسني.. تفتك بي.. ذلك البرد الشديد الذي كنت أشعر به لا يتفق مع السخونة التي تصدر من رأسي، وحمرة النار التي تخرج من عيني.. كانت الأصوات تدق فوق رأسي كإزميل يشق الصخر.. لا أكاد أميز مصدرها ولا معناها.

وقتها رأيتها.. كانت ترفرف في السماء.. كل قصص الحب التي قرأتها لم تكن بها من هي أجمل منها.. هل تكون الحور العين أجمل منها؟ أذهبت الآن إلى الجنة؟ هل أوصلتني تلك الحمى اللعينة إلى هناك؟ فارقت الحياة إذن!! كلا.. ما زالت هناك أصوات أعرفها تصل إلى مسامعي.. يبدو أنني ما زلت هنا.. على تلك الأرض!

حاولت أن أقترب منها.. رأيتهم يلتفون حولها.. كلٌ يبدو وكأنه الفارس المغوار الذي جاء ليخطفها فوق ذلك الحصان الأبيض الذي صادفته في كل قصص العشق.. في عيونهم طيبة مصطنعة تخلف وراءها شرا كامنا في النفوس.. ما لها وهؤلاء؟

مثلها لا يجب أن يلتف حولها هؤلاء.. ورأيت كبيرهم..

كان في سمته ملاكا.. البياض يلفه من كل جانب، لكن ذلك لم يخدعني.. كان البياض يخلف سوادا وراءه.. ما هذا؟ لِمَ تدنو منه؟ لِمَ اختارته هو دون غيره؟ أغرها ذلك السمت الصبوح؟ أغرتها تلك الكلمات الساحرة التي تخرج منه؟ اقترب منها.. واقتربت.. خطفها من الجميع.. ابتعد وابتعدت معه.. ومع كل خطوة كان يخطوها كان الرداء الأبيض ينزاح من عليه.. شيئا فشيئا.. لم يكن هناك إلا السواد!!

ورأيتك هناك.. نعم كنت هناك يا «أبو العلا» كنت تراقب ذلك المشهد من نافذتك.. كنت تنظر وتدوّن.. ترى وتسجّل.. تبصر وتكتب.. نظرت إليك.. قلت إليك: «يا حبيبي.. يا صديقي.. ساعدني كي أخلصها مما هي فيه.. امنحني ذلك الحصان الأبيض لأكون أنا الفارس».. كنت أعرف أنك تسمعني، ولكن الكلمات لم تخرج من فمك.. فقط هي عيناك التي قالت: «فارسها سيأتي يوما.. لكن لم يأتِ الوقت بعد»..

«ألن أكون أنا ذلك الفارس يا حبيبي؟!» قلتها بعيني أنا أيضا.. وجاءني الرد: «فارسها من يدرك معنى الحب»..

وصرخت: «أنا أعرف معنى الحب، فلم لا أكون أنا؟»..

فقلت: «فارسها يعرف معنى العدل».. وزاد صراخي: «أنا

أعـرف معنـى العـدل».. وجـاءني صوتـك عميقـا كعادتـه: «فارسـها يعـرف معنـى الحـق».. قلـت: «أعـرف معنـى الحـق».. فـرددتَ: «فارسـها يعـرف معنـى الخـير».. قلـت: «أعـرف الخـير»، واقتربـتَ منـي قائـلا: «فارسـها يعـرف معنـى الجـمال».. قلـت: «وهـل يعـرف الجـمال غـيري؟»..

واقتربـتَ أكثـر وأكثـر.. واخترقتنـي عينـاك الخـضراوان، ثـم قلـت: «ومـا فائـدة أن تعـرف ذلـك كلـه دون أن تملـك القـوة.. كـن قويـا تنـشر الحـب والعـدل والحـق والخـير والجـمال»..

واختفيـت عـن ناظـري كـما اختفـت هـي.. وزاد الصـوت مـن حـولي.. وبـدأت أميـز الأصـوات.. سـمعت مـن يقـول: «الحمـد لله.. لقـد ذهبـت الحمـى»..

ذهبـت الحمـى يـا «أبـو العـلا» وجئتـك.. جئتـك لتدلنـي عـلى القـوة.. أيـن أجدهـا؟

تـرك قلمـه وأوراقـه.. والتفـت إليّ.. وأشـار بيديـه قائـلا: «هنـا.. سـتجد القـوة».. ونظـرتُ إلى حيـث أشـار.. كان يشـير إلى.. قلبـي!!

# ( 69 )

الوقت يمر .. لا مفر.. ذلك الشعر الأبيض يبسط نفوذه.. لا مفر.. صحيح أن العمر لم يصل إلى الأربعين لكن ثقل العمر يضاعفه ويضاعفه.. لا مفر.. هل غابت السعادة عني؟ لا أستطيع أن أقول نعم.. ولكن تلك الإجابة الأخرى تبدو عصية!

«القبض».. يا لها من كلمة.. تغزو فؤادي العليل.. هي ذاتها تلك الحالة التي تتملكني كثيرا.. أصبح مضادها «البسط» أمرا بعيد المنال.. حتى وسط الضحكات والبسمات يحاصرني ذلك القبض.. لم لا يرحل.. قليل من البسط يداوي الألم ويشفي الجراح..

كانت هذه الأفكار تراودني وأنا أسير بلا هدف.. أسير في ذلك العالم الذي هو سبب قبضي.. وفجأة وجدتني هناك.. تحت تلك النافذة المضيئة دوما.. بقعة الضوء التي ألجأ إليها عندما يحاصرني الظلام..

حين دخلت إلى خلوته من ذلك الباب المفتوح وجدته مادًّا يديه إليّ.. قال لي: أنتظرك منذ أكثر من ساعة!

هممت أن أسأله: وهل تعرف أني سآتي؟ لكني عرفت عدم جدوي السؤال، فهو يعرف دومًا.. تبسّمت وقلت له: وأنا أشتاق إليك منذ آخر لقاء.. قال لي وابتسامة خفية على وجهه: الصب تفضحه عيون.. وعيونك فاضحة لك.. ماذا بك؟

قلت: لا أعرف.. مشكلتي أني لا أعرف..

قال وهو يدنو مني: وهل الراحة في المعرفة؟

لم أجد ردًا، فواصل حديثه: كثيرون ظنوا ذلك، فلم يجدوا راحة!

لم أفهم.. ولكني قلت: أفي الجهل الحل؟ قال: لا..

وظهرت علامات التعجب والتساؤل على وجهي، فقال: طريق المعرفة هو المشكلة وفيه الحل..

قلت: يا «أبو العلا» كفاك ألغازا.. لم أعد قادرا على ذلك..

قال: ظنوا أنهم في طريق المعرفة سالكون، فلم يجدوا في نهايته إلا ظلمة الجهل..

قلت: دلني على الطريق إذن..

استدار نحو نافذته وهو يقول: ما أقربه إليك!

وخرجت الكلمات فيما يشبه الصراخ: أين هو.. أين..

وشعرت بأنه يبتعد.. لحظات صمت غلفت المكان.. لم يرد.. ثم اقترب من كرسيه. واستوى عليه وأخذ ينظر إليّ دون أن يتكلم..

بضع لحظات مرت.. ثم جاءني صوته العميق: انظر حولك لتراه.. وقتها ستعرف أنه قريب..

اقتربت منه ثانية.. وخرجت الكلمات واهنة: يا «أبو العلا» تعرف كم أحبك، فلِمَ تضنُّ عليّ بالطريق.. دلني عليه..

أشاح بوجهه بعيدا عني.. وقال: أولم أدلك بعد؟!

وزادت حيرتي.. كدت أجن.. ماذا أفعل.. القبض يزيد يا «أبو العلا».. أما من بسط عندك؟! دارت تلك الكلمات في رأسي دون أن أجرؤ على إخراجها..

وأعاد ناظريه إليّ.. واخترقتني العينان الخضراوان.. وفجأة رأيت الطريق.. أو هكذا خيل إليّ!! كل ما أعرفه أن القبض ذهب.. وجاء البسط!!

# ( 70 )

امتدت الأيدي.. صافحت الجميع.. التمتمات على الألسنة.. «البقاء لله.. سعيكم مشكور.. شد حيلك».. قليلون هم من أعرفهم وسط هؤلاء.. لكن من يجمعنا كان واحدًا.. ولكنه ذهب.. ذهب إلى حيث لا رجعة!!

سقطت ورقة جديدة في شجرة الحب.. شريط ذكرياتي معه لا يتوقف.. ثلاثون عاما وربما أكثر.. كنت طفلا صغيرًا وقتها.. صحيح أنني لم أرَه منذ خمسة أعوام على الأقل، ولكنه كان موجودا دومًا.. كان «حسه في الدنيا».. ها هو قد ذهب دون أن أراه لآخر مرة.. دون أن أقتنص منه كلمة.. همسة.. لمسة.. إشارة.. نظرة.. إيماءة!!

جلست وسط هذه القاعة الكبيرة.. وأخذت أنظر إلى هذه الوجوه علني أجد من أعرفه.. ووجدته.. كان هو.. «أبو العلا».. وكيف لا؟ والتقت عينانا!!

«قهوة يا أفندم».. هكذا قال لي ذلك الرجل الذي مر علينا حاملا بضع فناجيل من القهوة وأكواب من الماء.. لم يكن لي

رغبة في شيء.. شكرته بأن وضعت يدي على قلبي.. ذلك القلب الموجوع.. وعدت لأنظر إلى «أبو العلا».. لم يكن هناك.. أين ذهب.. هل انصرف من المكان؟ أشعر بأنه موجود.. سهام عينيه الخضراوين تخترقني.. أين ذهب؟!

«صدق الله العظيم».. كانت إيذانا بأن يتحرك الجميع.. كأنها كلمة السر لأن ينصرف من يريد، ويهمس من يحب.. وجدتني أقوم.. كنت أبحث عنه.. ووجدتني مشدودا إلى ذلك المكان الذي ألتقيه فيه دوما.. داخل الغرفة ذات النافذة المضيئة!!

عندما دخلت عليه من ذلك الباب، الذي لم أرَه مغلقا أبدا، كان يدون في كتابه.. قال لي دون أن يرفع رأسه: «اجلس».. جلست ثم قلت: «كنت هناك».. لمْ يأتني الرد.. أكملت وأنا أضع رأسي بين كفيّ: «كان واحدا ممن عرفوني عليك.. أتذكر ذلك اليوم الذي جاء بي إليك فيه.. هنا.. في هذا المكان.. النافذة نفسها.. الباب المفتوح ذاته.. حتى ذلك الكتاب.. يومها شعرت برهبة تملأ أوصالي.. كان مهيبا.. ولكن هيبته تضاءلت أمام هيبتك»..

لم يرد.. رفعت رأسي ونظرت إليه.. كان مشغولا بالتدوين في ذلك الكتاب.. قلت: «أبو العلا.. لم لا ترد؟ لماذا ذهب؟ لماذا

يذهب كل من أحبهم.. لماذا يتركونني وحدي؟ أبو العلا.. تكلم»..

لم يرفع رأسه.. جاءني صوته العميق: «وماذا تريد أن أقول؟».. وخرجت مني الكلمات كالسهم: «أي شيء.. فقط تكلم.. لماذا ذهب وتركني؟».. وهنا رفع رأسه وصوب نظرته إليّ قائلا: «أهو من تركك»؟!

معك الحق.. خمس سنوات لم أرَه فيها.. لم أسمع صوته فيها إلا مرة أو اثنتين.. معك الحق يا «أبو العلا».. ولكن.. لمْ أجد ما أقول.. أطرقت ثانية، ثم قلت: «أعرف أنني شغلت عنه.. ولكن.. أنت تعرف مشاغل الحياة»..

ولم يأتني رد.. رفعت رأسي فوجدته قد عاد إلى كتابه.. قلت: «أبو العلا.. لم لا ترد؟!».. وتوقف القلم عن التدوين.. وانتصب واقفا.. وتضاءلت أمام قامته المنتصبة.. تضاءلت وتضاءلت.. ثم جاءني صوته: «الحياة!!» وتوجه نحو نافذته.. وطالت النظرة إلى عالمه.. دقائق مرت دون أن يتكلم.. ولم أجد أنا فيها ما أقول.. فكرت في الانصراف.. لكني كنت أعرف أنه يراني، وزادت رهبتي.. هممت أن أتكلم.. وقبلها..

جاءني صوته وقد زاد عمقا ومهابة: «قم.. اذهب إلى حياتك..

أمـا هـو فقـد عـرف طريقـه.. ذلـك الطريق الـذى اختـاره»..

خـرج صـوتي متوسـلا: «أبـو العـلا».. لم يلتفـت.. وقـال: «اذهـب.. علّـك تجـد طريقـك يومـا»!!

obeikan.com

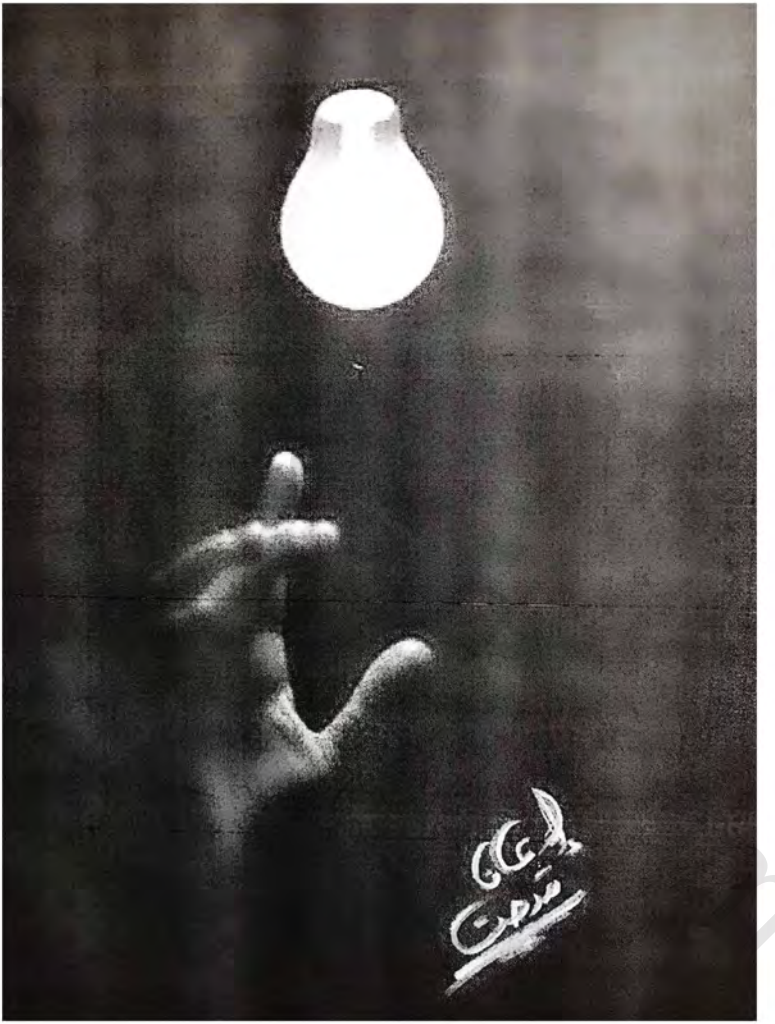
إلى عالم
متعة

obeikan.com